# القرينة الخارجية
# مجالها ووظائفها

دكتور
**منال مبطي المسعودي**

مجلة
كلية
الدراسات
الإسلامية

مجلة
كلية
الدراسات
الإسلامية

مجلة
كلية
الدراسات
الإسلامية

اللهم نحمدك ونثنى عليك الخير كله، ونعو بك أن نقول زوراً أو أن نغشى ما تكره، ونعوذ بك من الصد عن الحق بعد تبيان نوره وانبلاج سناه، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد هادي العقول ومزكي القلوب، وعلى آله وصحبه خير من اتبع واستقام على الهدى.

وبعد.

كنت على أن أقدم بين يدى بحثي مقدمة عن مشكلة المصطلحات والأزمة التي صورتها بعض الكتب ولكن رأيت أن أعرض صفحاً عن موقف الشكاية والشعور بالمأزق ثم اللجوء إلى استرفاد أدوات ونظريات من الدراسة الغربية واستنفاد الجهد في الترجمة وتعريب المصطلح ومحاولة التأصيل له ليتوأم مع الفكر العربي ثم يموت ذلك المصطلح في بيئته الغربية ويرجم بالقصور ويحل غيره فنظل في دوامة مستمرة خلق ووأد، ورأيت أن ذلك التخبط في عمياء بسبب غيبة الأنظار عن كتب التراث العربي بحقوله المعرفية المختلفة والتي تعج صفحاته بمصطلحات وسبل لدراسة النصوص وتحليلها واستنباط ما تحت بيان المتكلم من مقاصده وأغراضه وأحوال نفسه وهواجس خواطره، وقد هيأ الله لي في فترة من الزمن ملازمة كتب أصول الفقه وتحليل آيات الأحكام وسبل الأصوليين في استنباط الحكم والأدوات التي مارسوها وتوسلوا بها إلى استجلاء مقاصد الشارع من النصوص في محاولة للبحث عن أصول الدرس البلاغي وعناصره وكيف وظفها علماء أصول الفقه؟ وكيف تصاعدت عناصر البلاغة ونمت في ذلك الحقل؟ وما الزيادات التي طرأت عليها؟ فصادقت عجباً وصدت ثميناً حتى خلت أنني أقرأ لشراح أدب وكدت أجزم أن ممارسة هذه الأدوات البلاغية بهذا الفكر الواعي المقنن لم يكن

وليد الدرس البلاغي وإنما هي عناصر من أصول الفقه تحدرت إلى الدرس البلاغي وأنه لم يكن للبلاغة إلا صياغة القاعدة أو تقنين الأدوات حتى أعادني السكاكي وأيقظني من ذلك الوهم إلى مرحلة نشأة علم البلاغة حيث قال: "ثم مع ما لهذا العلم من الشرف الظاهر والفضل الباهر لا ترى علماً لقي من الضيم ما لقي، ولا مني من سوم الخسف بما مني، أين الذي مهد له قواعد ورتب له شواهد وبين له حدوداً... علم[1] تراه أيادي سبأ فجزء حوته، وجزء حوته الصبا، أنظر باب التحديد فإنه جزء منه في أيدي من هو، انظر باب الاستدلال فإنه جزء منه في أيد من هو، بل تصفح معظم أبواب أصول الفقه من أي علم هي ومن يتولاها؟[2]"

فتأكد لي هذا التداخل بين العلمين وأنهما جنينا رحم واحدة ويغذيهما أصل متفق وتجمعهما وشائج متشابهة، بل أن السكاكي يرمي بنصه لأبعد مما في خاطري فهو يؤكد أن أصول الفقه كان في أيدي علماء البلاغة ونتاج الدرس البلاغي في قوله: "بل تصفح معظم أبواب أصول الفقه من أي علم هي ومن يتولاها".

فمعظم السبل التي عولج بها الحكم الشرعي في محاولة تحقيق دلالة مقاصد الشارع، تستند في أصولها إلى جذور بلاغية تفرعت عنها واتسعت وتكاثرت فروعها من خلال ممارستها في التحليل وانعطفت مع النصوص في اتجاهات مختلفة لتستوعب جميع أحوال النص ثم تستقيم به على ضوء النظرية البيانية. وهذه الفروع متى ضممناها إلى الدرس البلاغي اكتملت بها الفائدة وزادت في معرفة الأسرار والدقائق، ثم أن

---

١ ) يقصد علم البلاغة.

٢ ) السكاكي:"مفتاح العلوم" ا ص١٩٩.

نقلها إلى حقل الدراسة الشعرية يساعد على استثمارها على نطاق ممتد ويؤصلها في البيان، وقد روى عن ابن السيد النحوي قوله: "أن الطريقة الفقهية مفتقرة إلى الأدب مؤسسة على كلام العرب وإن مثلها ومثلة كما قال ابن الأسود الدؤلي:

فإن لم يكنها أو تكنه فإنه أخوها غذته أمها بلبانها

فهذا النص يشير إلى التداخل والتشابه البالغ بين هذين العلمين حتى يكاد الناظر فيهما يظنهما كياناً واحداً أو غذيا بلبان واحد وأصل متفق فكل منهما مفتقر إلى الآخر.

فإن كان أصول الفقه مفتقر إلى البلاغة في زمن نشأته فعلم البلاغة مفتقر إلى طرائق الفقهاء ومناهجهم في الاستنباط في وقت ركود الدرس البلاغي وتخبط النقد في عمياء.

وهذا البحث محاولة للتجسير بين علمين متداخلين والوقوف عند بعض أدوات الأصوليين وطرائقهم في تحليل الخطاب الشرعي واستكناه مقاصده ونقل بعض منها وهو "القرينة الخارجية" إلى الدرس البلاغي وبيان إمكانية التأنيس بين الحقول المعرفية المتداخلة في أصولها ، فالعلوم كلها متعاونة مترابطة بعضها ببعض.

القرائن وأنواعها:

تمثل العناية بالقرائن محوراً رئيسياً في فهم الدلالة وتصحيح المعاني ويستدل بها على مقاصد المتكلم من خطابة، لذلك جعل القدماء من شروط بلاغة الكلام أن يكون المعنى "مستأنساً بقرائنه"[1].

١ ) المرزوقي : "شرح ديوان الحماسة" ٩/١.

**والنص محيط دلالي واسع النطاق يحتاج إلى فقه بما يحمله من ودائع وأسرار فلا يبعثه مسلك واحد وإنما يحتاج في الامتداد بدلالته إلى أدوات متنوعة؛ لأن الدلالات داخلة متشابكة فيستلزم ذلك التدسس في القرائن والأحوال ثم العمل على بعثها واستنباطها عبر مسالك تضبط حركة المعنى وفق مقاصد المتكلم مع عدم الإخلال بمواقعها في الفصاحة والبيان.**

**والقرائن هي "مجموعة العناصر السياقية والمقالية التي تصاحب التعبير والتي يعول فيها على قدرة المخاطب على إدراكها والاستدلال منها على مراد المتكلم"(١).**

**وهذا النص يقتصر على نوعين من القرائن وهما:**

**القرائن الحالية أو المقامية: وهي عنصر خارجي يشمل ظروف أداء المقال والملابسات المحيطة به.**

**القرائن اللفظية أو المقالية: وهي عنصر داخلي يشمل جميع الخصائص التركيبية للألفاظ، وما يتولد منها من دلالات نتيجة اعتبارات ترجع إلى توخي الترتيب.**

**والمتتبع لدراسة المناهج القرآنية يجد نوعاً غائباً عن التصنيف السابق وهو " القرنية الخارجية " وقد نص على هذه التسمية الإمام التلمساني حيث ذكر أن القرائن هي لفظية أو سباقية أو الخارجية"(٢).**

**وسنقف التعريف عند كل نوع منها ...**

**<u>أولاً : القرائن الحالية أو السياقية :</u>**

---

١ ) طه عبد الرحمن : "تجديد المنهج" ٥٧.

٢ ) "مفتاح الوصول" ٥١.

وتمثلت صورتها في مصطلحي "الحال" أو "المقام" وهما يرجعان إلى مناط واحد هو الكيفيات التي يكيف وفقها الكلام على حسب اعتبارات خارجية، ولكونه جزء من دراسة الأسرار والدقائق انتقل إلى مجالات دراسة النص التشريعي لأنه من "العلم الضروري الذي يفيد القطع على مراد المتكلم"[١].

فالدرس الأصولي لاحظ الأحوال وعملها في الإبانة عن المقاصد ثم امتد بها إلى تحقيق الحكم الشرعي ويسمى بمعرفة أسباب النزول فـ"معنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال"[٢] وقد حدد الشاطبي هذا الانتقال وأن أصوله ترجع إلى الدرس البلاغي يقول: "المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل، وهذا معلوم في علمي المعاني والبيان "[٣].

والدرس البلاغي يتناول الحال من جانبين هما: جان توافق اللغة مع المقام، وجانب التعاند بين اللغة والمقام ، وكلا الجانبين يعكس إشعاعات من المعاني المتولدة ويحدث معان مطوية في الكلام ، وجانب التوافق ظاهر، أما التعاند فعمل القرنية فيه فتح باب التأمل وتحريك دواعي المخاطب للاجتهاد وإثارة المعاني وأوضح صورها التعاند في الاستعارة وذلك أن " ندعي هناك الشجاع مسمى للفظ الأسد ، بارتكاب تأويل حتى يتهيأ التقصي عن التناقض في الجمع بين إدعاء الأسدية وبين نصب القرينة المانعة من إرادة الهيكل المخصوص[٤].

---

١ ) الجويني: "البرهان في أصول الفقه" ٣٤/١.

٢ ) الشاطبي: "الموافقات" ٢٦٦/٤

٣ ) السابق نفسه.

٤ ) السكاكي "مفتاح العلوم" ٣٧٩.

ومذاق علم القرائن هو تتبع ما تحدثه من تنوع في الدلالة، فهناك الكثير من الدلالات الأصلية للصيغ متى ربطناها بسياقها أفادت معاني إضافية، ومن ذلك دلالة الفعل المضارع وهو في أصل الوضع يدل على الحدث المقارن للزمن، ويناسبه اعتبار التجدد ومعنى التجدد في الفعل هو تجدد مطلق وقوعه، أي الحصول بعد العدم ، فلما نقلوا تجدد الحدوث إلى حقل الغرض زادوا على أصل الوضع معاني يقتضيها المساق وهي التجدد الدال على الحصول على وجه الاستمرار شيئاً فشيئاً، وهذه الدلالة الإضافية دل عليها "الفعل بقرينة السياق"[1].

نحو قول الشاعر:

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلى عريفهم يتوسم

فقوله: يتوسم" على معنى التقصي شيئاً فشيئاً، والقرينة فيه أن "تعيين المطلوب إنما يحصل بعد التفرس المتجدد كثيراً في وجوه الحاضرين"[2].

ويعمل السياق – أيضاً– على توجيه اللغة وتحريك دلالاتها نحو المعاني الملائمة للأغراض فدلالة الحال "تبين غرضك فإذا قلت طلعت الشمس، وأنت تريد امرأة علم أنك تريد وصفها بالحسن، وإن أردت الممدوح علم أنك تقصد وصفه بالنباهة والشرف"[3].

فالأصل في باب البلاغة اختلاف أقدار المعاني باختلاف القامات ، لأن اختلاف المقام يسترعي أوصافاً تتغير بتغير الانتقال من موقف إلى

١ ) المغربي "مواهب الفتاح" ٨/٢.
٢ ) الدسوقي "الحاشية" ٢٩/٢.
٣ ) عبدالقاهر "أسرار البلاغة" ٢٤٣.

آخر فتتحرك المعاني تحركاً يوافق الأغراض المتوخاة، وعندها يصبح وضع اللغة لا يعمد فيه المتكلم إلى مجاذبة أوضاع النحو وإنما يعمد فيه إلى توخي المقامات وإثارة دلالاتها، وأوضح صور هذا الباب "التمثل بالشعر" حيث تنتقل فيه الدلالات انتقالاً يناسب مقاصد الحاكي وتتكيف اللغة بكيفيات خاصة بالمتحدث بها وأحواله فينقل باب اللهو ويجعله أداة في جد، وانظر كيف تحولت الدلالة في بيت الشاعر حينما تمثل بها الحسن البصري رضي الله عنه في مواعظه:

اليوم عندك دلها وحديثها وغداً لغيرك كفها والمعصم

والبيت نظمه قائله في النساء وذكر أحوالهن وتقلب قلوبهن، فلما تمثل به الحسن في موقف الوعظ وذكر الدنيا، انتزع جذور المعنى وغرسها في حقل آخر، فتحركت دلالات اللغة تجاه أوضاع تناسب الموقف ، فأصبحت الحقيقة مجازاً، فالدل يصبح مجازاً عن فتن الدنيا، والحديث أمانيها وما تزينه في نفس المتعلق بحبائلها، والكف يصبح الإقبال والعطاء، والمعصم دلالة على التمكن، ثم لا تنقطع دلالة الحقيقة تمام الانقطاع بل تتصور في اللغة بصورة الإيحاء الخافت تحت أديم اللغة، لأن العلاقة بين النساء والدنيا قريبة، فالنساء من فتن الدنيا وبذلك ينتظم ذكر النساء ضمنياً في ذكر الدنيا.

واختلاف الموقف أيضاً يزيد في حال التحسر التي بني عليه البيت، لأن حال التحسر على الدنيا غيره في حال التحسر على المرأة، لذلك قويت دلالة الوعظ في نفس البصري حتى أنه كان ينشده وهو يبكي "وكان من أوجعها عنده"[1].

١) عبد القاهر: "دلائل الإعجاز" ١٣.

فالاختلاف بسبب من انعكاسات الموقف على اللغة، فيؤثر المقام في إنشاء المعنى وتناميه تبعاً لتنامي اللغة داخل الأغراض التي نقل إليها المعنى فينزع المقام الكلام إلى جهة ملائمة للمقام الآخر، فثبات الدلالة وتحولها تابع لحالتي الثبات والتحول في الأغراض.

فالتراث الإسلامي أسس معرفته على النظر في الملابسات المحيطة بالكلام، وقد تسنى هذا لعلماء الوضع فأدركوا أوضاع اللغة استعمالاً ووجوه التصرف التي تختلف باختلاف الأحوال المقترنة بها ، ولهذا امتازت طبقة ابن أبي إسحاق وأبي عمرو بن العلاء بمعرفة الفروق في اللغة نتيجة المشاهدة للملابسات والظروف المحيطة بها أثناء الخطاب(١).

وخصوصية المشاهدة هي ذاتها الخصيصة التي امتاز بها الصحابة – رضوان الله عليهم – في فهم الأحكام واستنباط دلالتها فقد " شاهدوا من أسباب التكاليف وقرائن أحوالها ما لم يشاهده من بعدهم"(٢).

ونجد العناية بالأحوال أيضاً حاضراً عند المتكلم، فكثيراً ما يعمد إلى وضع الهيئات المقترنة بالكلام، وذلك بوضع الجمل الحالية الحاكية للواقع، مما يكسب كلامه ثراءً ويثير النفوس لما تحمله حكاية الحال من تمثيل الواقع وتصويره في صورة المشاهد الواقع مثل قول الرسول ﷺ: "لا الفين أحدكم متكئاً على أريكته، يأتيه الأمر من أمري مما نهيت عنه أو أمرت به، فيقول: لا ندري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه".

١) ابن جنى : "الخصائص" ١٤٦/١.
٢) الشاطبي : "الموافقات" ١٣٢/٤.

فعمد عليه الصلاة والسلام إلى تصوير الهيئة التي عليها المتكلم للدلالة على ترك المبالاة بالسنة، والتهاون في طلب أمور الشريعة والتقاعس عنها، وهذه المعاني جميعها قذفت بها في النفوس جملة "متكئاً على أريكته".

وقد أشار ابن جني إلى ما تحدثه حكاية الحال من زيادة بيان حينما ذكر قول الشاعر:

تقول – وصكت وجهها بيمينها أبعلي هذا بالرحى المتقاعس؟!!

فالحال: "وصكت وجهها بيمينها" فيها دلالة على التعجب والإنكار، وإن كانت اللغة بتركيبها وطريقة تأليفها أفادت الإنكار بقوله "أبعلي.." ولكن حكاية الحال أفادت العلم بقوة إنكارها وتعاظم الأمر في نفسها[1].

ثانياً : القرائن اللفظية :

يمثل السياق التركيبي وحدة متكاملة العناصر تتفاعل فيها اللغة في نطاق دلالي مشترك تتشارب فيه الألفاظ من خلال تجاورها واتساقها في انساق متشابهة .

وقد بلغت العناية بدراسة التراكيب ما يؤكد على خصوصية المعاني المنبعثة منه ، وأنها تتجاوز الوضع إلى دلالات ومعان متعددة تحدثها القرائن اللفظية ، لذلك جعل الشافعي السياق بالغ القدم ، فهو قديم قدم اللسان، لأن اللسان العربي فطر على اعتبار السياق وليس أمراً محدثاً. حتى عد اللغة هي السياق يقول: " إن فطرته – أي اللسان – أن يخاطب بالشيء منه عاماً ظاهراً يراد به العام الظاهر، ويستغنى بأول منه عن

١)ابن جني:"الخصائص" ١/١٤٦.

آخره، وعاماً ظاهرا يراد به العام ويدخله الخاص فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه، وعاماً ظاهراً يراد به الخاص فكل هذا موجود علمه في أول الكلام ووسطه وآخره"[١].



فالأول الوسط والآخر جميعها تتفاعل في توثيق الدلالات وإحداث خصوصية زائدة على أصل الوضع في اللغة، فالسياق علم متسع تمتد فروعه في اتجاهات وزوايا مختلفة للخطاب، فهناك ألفاظ للعموم متواضع عليها وحين تدخل في نطاق السياق أما أن تبقى على أصل الوضع أو تأتي في ظاهرها على العموم فيداخلها الخصوص ببعض عناصر الخطاب أولاً ووسطاً وأخراً، لذلك لا يتصور في اللفظة المفردة خصوصية عن غيرها خارج السياق، لأن السياق هو الذي يتمثل فيه القصد والاختيار، فإن تجرد "اللفظة عن جميع القرائن الدلالة على مراد المتكلم ممتنع"[٢].

وملاحظة عناصر الإسناد وما يحدث عنها من هيئات زائدة على أصل الوضع هو أصل الدرس البياني، حيث لا تجد الكلمات تتفاضل فيه باعتبار الوضع ولا تدل إلا بانتظامها في سلك واحد مع ما يناسبها " فلو أن واضع اللغة كان قد قال "ربض" مكان "ضرب" لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد، وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني"[٣].

فضميمه اللفظ تقوي الدلالة فيهدي فيها المعنى إلى المعنى المجاور له، ويفتح غيب المعنى السابق أو اللاحق من خلال الرد على

---

١) "الرسالة" ٥٢.

٢) ابن القيم "بدائع الفوائد" ٤٠٢/٤.

٣) عبدالقاهر "دلائل الإعجاز" ٤٩.

أولـه وأخره، فـلا نسـتطيع التوجـه الوجهـة الكاشـفة لأعمـاق النصـوص إلا بهذا الدليل، والارتباط القائم بين عناصر الكلام لفظاً وموقعاً يحفظ للنص استقامة دلالته واستكمالها "فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين لأنها يتقدمها ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين ولا يراد بها في حال التكلم والإخبار إلا معنى واحد"(١).

فقطع النظر عن السوابق واللواحق يؤدي إلى خلل في الفهم ، لأن النظر يقتضي التوفيق بين عناصر الكلام وأجزائه المختلفة ، فأجزاء الكلام في تأثير مستمر مع بعضها البعض، وليس هذا التأثير مقصوراً على الأثر الأعرابي وإنما يمتد إلى المعنى والصوت، ثم إلى التحسين الذي هو أصل في الدرس البلاغي ، فالكلام البليغ أن يكون كلامك يدل أوله على آخره، وآخره يرتبط بأوله، وقيل البلاغة: "القوة على البيان مع حسن النظام".

ثالثاً: القرينة الخارجية:

وهي " موافقة أحد المعنيين لدليل منفصل من نص أو قياس أو عمل"(٢). أي أنها مسلك قائم على الاقتران والتضام بين نصوص من خارج يجمعها نطاق دلالي مشترك.

والعناية بهذا النوع من القرائن الذي يعمد إلى ملاحظة مواقع المعاني وتناسب بعضها مع بعض سواء في نص واحد أو في نصوص

١) ابن الأنباري "الأضداد" ٢٠.
٢) التلمساني "مفتاح الوصول" ٥١.

متباعدة أصل من أصول المنهج الأستنباطي، وسماها ابن القيم دلالة الاقتران: وجعلها أخص وألطف من دلالة التراكيب[1].

وقد بين ابن قيم الجوزية خصوصية هذا النوع بالنسبة لغيره من القرائن، فهي ذات وجهين تجمع في دلالتها بين اللفظية والقياسية "لفظية من جهة دلالة الخطاب، وضم بعضه إلى بعض، واعتبار بعضه ببعض، وقياسية من جهة اعتبار المعنى، والجمع بين المتماثلين والفرق بين المختلفين"[2].

لذلك كانت دلالتها أخص وأدق فهي متلبسة بالغموض واستنباط المعنى بها يحتاج إلى ثقافة ومران ووعي بالغ بنقاط الالتقاء والاختلاف بين النصوص المتناظرة.

والقرائن على تنوعها ليست درجة واحدة في الوضوح وإنما يتفاوت فهم الناس للنصوص بحسب قدرة المستنبط على توظيف القرينة وإعمالها، فمن الناس "من يفهم من الآية حكماً أو حكمين ، ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك، ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه ودون إيمائه وإشارته.. وأخص من هذا وألطف ضمه إلى نص آخر متعلق به فيفهم من أقرانه قدراً زائداً على ذلك اللفظ بمفرده وهذا باب عجيب لا يتنبه له إلا النادر من أهل العلم ، فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به"[3].

---

١) ينظر "إعلام الموقعين" ٢٧٣/١.

٢) السابق: ص٢٧٤/١.

٣) السابق: ٢٦٧/١.

ففقه دلالة التراكيب والوعي باللغة والإحاطة ببيانها ليس كافياً في النتاج الدلالي المتصل أو الأطر الخارجية الملابسة له ، بل تظل الحاجة إلى الوعي بنصوص أخرى وسياقات مقاربة تتضام فيها الدلالات وتنعقد بينها روابط نسب وشبكة فتتعاضد لتثمر معطيات دلالية خصبة، لذلك كان الاقتران بين النصوص من أغمض أبواب المعاني وأدقها، لأن النظر فيه لا يقتصر على الجملة الواحدة وما بينها من علاقات و وشائج قريبة تؤدي جميعاً معنى في دائرة واحدة. بل يتعدى النص أسواره ويمتد أفقه ويتسع إلى ما يشابهه من سياقات منتظمة معه في مقاصده وفي هذا "إدراك لقيمة السياق بمعناه الواسع"(١).

ودراسة الأصوليين للقرنية الخارجية مشابهة لدراسة أسرار العلاقات بين الجملة والجملة عند البلاغيين والتي هدفها دراسة أصول الدلالات في التركيب الواحد ثم معرفة موقع دلالة الجمل بعضها من بعض في السياق الواحد وملاحظة عمل الجملة في الجملة بالتأكيد أو التفسير أو التفصيل وغير ذلك من المواقع التي يحصل بها وجه من وجوه الإبانة. فالقرنية الخارجية هي امتداد لتلك الدراسة البلاغية ولكن تجاوزوا بها حدود الجملة الواحدة والنظر في التآخي بين أجزاء الجمل إلى دراسة مواقع النص في النص الآخر، وتتبع أصول الدلالة وامتدادها في كلام الشارع على تنوع الخطاب كتاباً وسنة، يقول ابن القيم".

"وأنت إذا تأملت قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ وجدت الآية من أظهر الأدلة على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وأن هذا القرآن جاء من عند الله، وأن

١) طاهر حمودة "دراسة المعنى عند الأصوليين" ٦٤.

الذي جاء به روح مطهرة، فما للأرواح الخبيثة عليه سبيل، ووجدت الآية أخت قوله: (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾) ووجدتها دالة بأحسن الدلالة على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر ووجدتها دالة أيضاً بألطف الدلالة على أنه لا يجد حلاوته وطعمه إلا من آمن به وعمل به... وتحد تحته أيضاً أنه لا ينال معانيه إلا القلوب الطاهرة، وأن القلوب النجسة ممنوعة من فهمه مصروفة عنه، فتأمل هذا النسب القريب وعقد هذه الأخوة بين هذه المعاني وبين المعنى الظاهر من الآية واستنباط هذه المعاني كلها من الآية بأحسن وجه وأبينه...

وتأمل قوله تعالى: (إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ...) وتجد الحديث الصحيح كأنه مشتق من هذا المعنى وهو قوله ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: "ابن آدم إنك لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لقيتك بقرابها مغفرة..... وفهم هذا القدر زائد على مجرد لفظه ووضعه في أصل اللسان"[1].

فالنصوص التي استدل بها ابن القيم ذات أصل متفق فكل من الآية والحديث منشق من ذلك البيان مما صح معه استدعاء النص الآخر وتوظيفه في الكشف عما تحت تراكيب الآية من معان مستترة واستجلاء لوازن المعنى من نظائره، وهذا القدر خصوصية زائدة على فهم التركيب منفرداً وتتطلب مخاطباً واعياً بمواقع الدلالات واقتفاء أثارها وإيقاظ هواجعها في النص الآخر.

وهذا المسك في تفسير النصوص وفقه بيانها من أدق ما كتبه الأصوليون في دراسة النص وضبط أسرار المقاصد من خلال جمع الاشباه

١) "اعلام الموقعين" ١/١٧٢-١٧٤.

والنظائر واستخراج القدر الزائد على النص المفرد .ولا نكاد نعثر على مثل هذا الفقه في دراسة البلاغيين على الصورة التي تجدها في كتب الأصول مع أنها تشابه في أصولها مع حقول بلاغية وهذا الالتقاء يمكننا من اضافتها إلى الدرس البلاغي واستغلالها وتوظيفها في الدراسة الأدبية فهي جزء من الإبانة، وأيضا لأن اعتبار دلالة الموقع يكون في ذهن المتكلم أثناء إبداعه حتى يصبح جزءاً من الدلالة الحقيقية، وحتى تطمئن إلى رأينا انظر إلى قول إسحاق بن عيسى حين قال: "أعيذ علياً أن يكون قتل عثمان وأعيذ عثمان بالله أن يقتله علي".

قال الجاحظ: "فمدح علياً بكلام سديد غير نافر ومقبول غير وحشي، وذهب إلى معنى الحديث في قول رسول الله ﷺ: "أشد أهل النار عذاباً من قتل نبياً أو قتله نبي". يقول: لا يتفق أن يقتله نبي بنفسه إلا وهو أشد خلق الله معاندة أجرؤهم على معصية، وقال هذا لا يجوز أن يقتله علي إلا وهو مستحق القتل"(١).

فالجاحظ وضح خفي دلالة إسحاق بن عيسى من خلال قول النبي عليه الصلاة والسلام وكشف عن مجملها ، وجعل ذلك النص الخارجي جزءاً من بيان المتكلم وأنه قاصد إلى ذلك الاستحضار.

وإذا تأملت وجدت موقع المحال في دلالة الحديث هو المعنى الذي يستحضره إسحاق في نصه ويعمد إلى بناء هيئة كلامه على حذو كلام رسول ﷺ لذلك تصبح الحاجة إلى الوعي بالمعنى في سياق خارجي ضرورة ملحة ليكتمل المعنى، وسنفصل الحديث عن وظائفها لاحقا.

---

١) . البيان والتبيين ٣٠٢/١.

مجلة
كلية
الدراسات
الإسلامية

## مجال التداول في التراث الإسلامي



المتتبع لمناهج الدراسات القرآنية يدرك مدى حضور هذا النوع من القرائن فهي إحدى الأدوات الفاعلة في مباحث الدلالة القرآنية، وقد عملت هذه الدراسات على ضبطها وفق منهج محكم أكسب النص ثراءً دلالياً واسع النطاق مع المحافظة على صحة الدلالة ومقاصدها وحدودها فلا يشذ منها شيء ولا يدخل في نطاقها ما لا تحتمل.

وقد استخدمها السلف في مجالات متنوعة أهمها الكشف عن دلالات المتشابه، وهو ما كان الخفاء فيه صادراً عن اشتباه بعضه ببعض، وتداخله بأشباهه[١].

وعرفه القاضي عبد الجبار بأنه" ما لم يحكم المراد بظاهرة بل يحتاج في ذلك إلى القرينة"[٢]. وهذه القرينة لا تكون بذات اللفظ وإنما بالرجوع إلى السياقات المحكمة، وهي النصوص التي أحكمت دلالتها وظهرت حتى لا التباس فيها.

وإجراء هذا النوع من القرائن هو فقه ابن عباس رضي الله عنه في تفسير المثاني وأنها " ما يحمل بعضها على بعض".

فالمتشابه تجد فيه المبنى الواحد يبث المعان المتعددة بثا واحداً في النفس ويزيح جميع القرائن التي من شأنها أن ترجح معنى دون معنى، فتمام المراد به "غير قائم ولكن فيه توهم معرفة بالبيان والتفسير، وذلك البيان دليل آخر غير متصل بهذه الصيغة"[٣].

---

١) الزركشي: " البرهان " ٢/ ٨٦.

٢) "متشابه القرآن" ١٩-٢٠.

٣) " السرخسي :" الأصول " ١٦٨/١.

ولله قوله "(توهم معرفة) أي معرفة بنيت على الإيهام والمخاتلة تجد فيها آثار المعاني أما الحقائق فلا تجدها بذات الألفاظ وإنما تقع عليها بالطلب في مواقع خارجة عن سياقه، فتمتد دلالة المتشابه وتتحرك تفاصيل هذا التداخل من خلال نصوص مناظرة ومشابهة شيئاً فشيئاً حتى تكتمل المعاني وتنبعث أفانين القول.

وأيضاً نجدها جلية في مباحث الناسخ والمنسوخ ، وهو علم يبحث في مستوى من مستويات الدلالة وهو مسلك الانقطاع التام بين النصوص أي أنه تناقض تام لا يحضر فيه المعنى مع المعنى الآخر ولا يعمل فيه، ولخطورة هذا المسلك في تقرير الشريعة، اهتم العلماء باستجلاء ظاهرة التغاير ولاختلاف، وبيان المواقع التي يتناقض فيها النص مع النص، والمواقع التي يوهم ظاهرها بالاختلاف والانقطاع ثم نجد للائتلاف وجهاً. وقد أشار الشافعي إلى أنه وجه من وجوه البيان فقال: "ويعلم من فهم الكتاب – أي القرآن – أن البيان يكون من وجوه لا من وجه واحد يجمعها أنها عند أهل العلم بينة ومشتبهة البيان ، وعند من قصر علمه مختلفة البيان"[1].

فالبيان ليس مظهراً واحداً وإنما هو مسالك واتجاهات متنوعة تؤدي مقاصد تتفق وتختلف ، وتتفاوت في درجات الإبانة، فمنها ما هو بين بذاته، ومنها ما يدل على المعنى الأول مع تضمن ما يخالفه، وهذا الأخير هو الذي أوقع البعض في القول بالنسخ لكل خطاب تغاير في ظاهرة مع غيره، لذلك جعل الشافعي القول بالاختلاف والنسخ عند إمكانية الائتلاف راجع إلى قصور العلم وعدم القدرة على إدراك المعنى الجامع

١) الرسالة ، ١٤٦.

لحقائق الكلام، فليس الحكم بالمناقضة مقصوراً على ظاهرة اللفظ، وإنما المعول على المعاني والمقاصد"[١].



فالائتلاف يتجاوز حرفية الظاهر إلى جمع الإيحاءات الخفية في النص المختلف، وإلحاق النظير بالنظير، فيستثير المعنى المخالف المعنى المؤتلف، ويحرك دلالته من أعماق النص، وهذا أقرب إلى معنى المعنى، لأنك تجد اللفظ المتغاير مشحوناً بدلالات خفية لا يستثيرها إلا عطفه ورده على الدلالة المغايرة له في نص آخر فتصل بذلك إلى الائتلاف والتشابك، فبين كل شيء نسبة ومشاكله، وهي جملة أشياء لا تنفصل، وتفصيل حقائق لا تتصل"[٢].

وهذا لا يعني الاتصال بين النصوص وإلغاء الخصوصيات الفارقة بين النص والنص بحسب السياق وقرائن الأحوال وإنما مجاذبة عناصر الانسجام بين المختلفات ثم بيان أوجه التمايز والاختلاف ، وأثر ذلك في تنامي المعاني وقد قرر الأصوليون قاعدتهم في معالجة الناسخ والمنسوخ بأنه ( متى أمكن الجمع بين الدليلين لا يقال بالنسخ ) [٣].

ونذكر صورة توضح هذا الفقه وهي قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ آل عمران ١٠٢

قيل أنها منسوخة بقوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ التغابن ١٦ .

---

١) الجرجاني : "الوساطة" ٤٧٣.

٢) أبو حيان : "المقابسات" ٢٣١.

٣) ابن النجار : " شرح الكوكب " ٣.

وأكثر العلماء على أنها من المحكم[1]، لأن التقوى هي أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، فالتقوى مقصد يتأبى على النسخ والإزالة، وضبط حركة المعنى يكون بملاحظة القيود التي قيدت بها التقوى وسياق الآية، فقوله: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ ناسب تذكيرهم بنعم الله عليهم وأولى تلك نعمة الإيمان والخروج من دائرة الكفر والضلال ثم شيوع السلام الذي تحول بحياة العداء إلى الألفة والأخوة. فلما اقترنت التقوى بحق الله وجب معها إجراء المبالغة ليتناسب مع أنعام الله وعطائه الذي لا طاقة للعبد في الوفاء به، أما في قوله: ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

فالتقييد بالاستطاعة لا يحتمل معنى التخفيف، لأن سياقه يقتضي المجاهدة والمصابرة لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ التغابن ١٤

ثم قال: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

فهذه جميعها قرائن وأحوال تحيط بدلالة التقوى وتصور الفتن والمكاره التي قد تنحرف بالمؤمن عن طريق الحق فيتحول التقييد بـ(ما استطعتم) من التخفيف إلى المجاهدة و المصابرة لأن التقوى تنمو في أجواء الحذر، فيتحول السياق بمعنى التخفيف في الاستطاعة إلى معنى غاية الصبر الذي هو (حق تقاته) لذلك قيل إن الآيتين ترجعان إلى معنى واحد ، لأن المعنى (اتقوا الله حق تقاته) أي اتقوه بغاية الطاقة وهو قوله: (اتقوا الله ما استطعتم)[2].

---

١) ابن الجوزي : " نواسخ القرآن " ٢٤٤.
٢) مكي : "الإيضاح " ١٧١.

وأيضاً باب ، الأشباه والنظائر أو ما يعرف بتخريج الفروع على الأصول وهو من أهم الأبواب التي عني بها الفقيه ، لما له من أثر في إثراء مقاصد الشارع وتوسيع دائرة الحكم من الأصل إلى ما يجتمع معه في العلة من الفروع المستجدة والحوادث الحادثة ، وفهم الأشباه والنظائر أحد الأدوات التي تمتد بدلالة الأصل ليدخل فيه جميع ما يشابهه ويقاربه من الوقائع ويجري عليه حكم الأصل ، وقد صنف في هذا الباب الكثير من المؤلفات وأهمها: (الأشباه والنظائر) لابن السبكي، و(الأشباه والنظائر) لابن نجيم الحنفي، و(والأشباه والنظائر) للسيوطي .

وهذا النوع من الدراسة ينهج نهجاً متفقاً وهو استثارة الفروع باعتبار الأصول والارتداد الدائم إليها حتى يقوى حكم الفرع باعتبار نظائره.

وهو باب واسع الغور قائم على الضبط والتحرير في جمع النظائر التي من باب واحد، وبيان ما اجتمعت فيه ، وجمع الأبواب المتشابهة وبيان ما افترقت فيه، وبهذا " يطلع على حقائق الفقه ومداركه ومآخذه وأسراره ... ويقتدر على الإلحاق والتخريج ومعرفة أحكام المسائل التي ليست مسطرة والوقائع التي لا تنقضي على مر الزمان ، ولهذا قال بعض أصحابنا : الفقه معرفة النظائر"[1].

واللغويون استخدموا القرينة الخارجية في حصر مدلولات اللفظة باعتبار السياقات التي دخلت فيها ، وهو ما يسمى بـ"الوجوه والنظائر" وصنف فيه أبو الحسين بن فارس كتابه الأفراد.

---

١) السيوطي : "الأشباه والنظائر" ٥٧/١.

"والوجوه: اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معان كلفظ الأمه والنظائر: كالألفاظ المتواطئة[1].



فطبيعة هذا الباب وموضوعه أوجه التشابه والتوافق مع بيان الفروق مثل قولهم " كل شيء في القرآن من ذكر السعير، فهو النار والوقود إلا قوله عز وجل (إن المجرمين في ضلال وسعر) فإنه العناد"[2].

وفي الدرس الأدبي نجد الإحساس بضرورة هذا النوع من القرائن ملحة فالناقد على وعي بأن الاستمداد والاستعانة بالنتاج السابق هو جزء من دائرة الإبداع، وأمام هذه الضرورة نجد الكثير من المصنفات التي تعمد إلى جمع أبواب المعاني وطرق تصرف الشعراء فيها، كما نجد في كتاب (المعاني الكبير) لابن قتيبة و(ديوان المعاني) لأبي هلال العسكري، وكتاب (الأشباه والنظائر) للخالديين.

وقد صرح الشعراء أنفسهم باستعانتهم بمعاني غيرهم حيث قال مجير الدين محمد بن تميم عن نفسه:

أطالع كل ديـــــوان أراه ولم أزجر عن التضمين طيري

أضمن كل بيت فيه معنى فشعري نصفه من شعر غيري

وهذا المتنبي يجعل كمال فصاحة الشاعر مرتبطة باقتداره على أن يجعل تحت كل لفظه من ألفاظه أصولاً يبني عليها الناس كلامهم ويفرعون على معانيه فيما بعد يقول:

فصيحٌ متى ينطق تجد كل لفظة أصول اليراعات التي تتفرع

---

١) الزركشي :"البرهان في علوم القرآن" ١٣٤/١.

٢) السابق: ١٣٩/١.

وقد روي عنه أنه صحح أبياته بالنظر في شعر غيره ذكر الواحدي أن المتنبي قال: "وأشبه في ضلوعهم الضلوعا"، فلما أنشد بين البحتري:

في مأزق ضنك تخال به القنا  بين الضلوع إذا انحنينا ضلوعاً

رغب عن قوله "أشبه" فقال: "وجاز في ضلوعهم الضلوعاً"(١).

فالقدرة على سبر الإبداع السابق للكشف عن حقائق المعاني واستثارة الإبداع من قلب الإبداع ، وتوليد المعنى من المعنى هو جزء من طبيعة الشعر ، وهذا ما لمحه ابن رشيق في عبارة بن النطاح ، ((الشعر مثل عين الماء إن تركتها اندفنت وإن استهنتها هتنت)) قال : ((ليس مراد بكر أن تستهتن بالعمل وحده، لانا نجد الشاعر تكل قريحته من كثرة العمل مرارة وتنزف مادته وتنفد معانيه، فالتعويل في هذا على المذاكرة والمطالعة للأشعار، فإنها تقدح زناد الخاطر، وتفجر عيون المعاني وتوقظ أبصار الفطنة(٢).

فحضور القرنية الخارجية أورد النص على النص في الدرس البلاغي أداة للكشف عن خصوصية الإبداع اللاحق، وتمثل ذلك في باب السرقات، حيث يعمد الناقد إلى قرن البيت بالبيت الآخر وتتبع جريان النصوص بعضها في بعض لبيان أصل المعنى ومن أين تفرع؟ وماذا طرأ عليه من تغيرات وزيادات؟ وعمل اللاحق في بيان المتقدم للكشف عن صنعته واقتداره على إضافة خصوصيات واستنباط معان يستحق بها صفة الإبداع ويخرج بها عن حدِّ السرق، وهذه التسمية قد تصرف الذهن عن

١) ينظر: العكبري "البيان" ٢٦٠/٢.
٢) " العمدة" ٢٠٦/١.

جوانب الإحسان لهذا المصطلح إلا أن تحت تنظير العلماء وأقوالهم في السرقات فكراً واعياً فلم يصنفوا الأخذ كله في إطار السرق بل فرقوا بين الاختلاس والأخذ المولد للمعاني وأطلقوا على الثاني الاستمداد والاستعانة والتوليد وجميعها من باب الاستخراج والاستنباط.

أي أن الإرث الإبداعي السابق حصيلة ثقافية يستعين بها المبدع ويجاذب حقائقها للتعبير عن أغراضه ومقاصده .

ودراستهم لهذه الجانب من الإبداع كثيراً ما يكون للاستدلال على صنعة الأديب وقوة منته في تصريف معاني المتقدمين والزيادة عليها مما يوجب له الفضل والحكم له بالإبداع. وأقدم نص في هذه القضية ما رواه الجاحظ عن نقاد المعاني يقول : (قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم والمختلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم والحادثة عن فكرهم مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبة، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون على أموره وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره، وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إياها ، وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم وتجليها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهراً، والغائب شاهدا والبعيد قريباً، وهي التي تخلص الملتبس، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل مقيداً، والمقيد مطلقاً والمجهول معروفاً والوحشي مألوفاً والغفل موسوما والموسوم معلوماً))[1].

١) "البيان والتبيين" ٧٥/١.

فالنقاد على اختلاف توجهاتهم في استحسان اللفظ أو المعنى أجمعوا على أن المعنى ظاهرة اجتماعية تستمد البقاء والحياة بالانتقال من نفس إلى نفس، فكأن نص الجاحظ بحث في تطور الدلالة والمراحل الانتقالية التي تمر بها وما يحدث فيها من زيادات وتفصيلات، والدلالة هنا ليست الدلالة العامة وإنما المعاني الأدبيه التي يبلغ بها الإنسان حاجات نفسه، فيستمد من غيره المعاني وينمي دلالتها بالذكر ولاستعمال فتتغير صورها وتتفاضل أقدارها بحسب ما يحدثه المستعمل لها.

ووجه أخر لنص الجاحظ وهو ضرورة تعدية النص خارج اسواره السياقيه إلى مجالات أوسع ونصوص تتصل به وأن ذلك من شأنه الكشف عن مقاصد المتكلم وشرح ما أشكل في بيان السابق وتجلية ما خفي وتقريب البعيد.

وصدى فكرة الجاحظ تردد عند النقاد وكرره على الجرجاني في القرن الخامس مؤكداً على أنه أداة لا غنى للناقد عنها في تحليل الإبداع ونقده حيث أصبح الاستمداد من بيان المتقدم سبيل من سبل الإنتاج الدلالي يقول: "وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ويستمد من قريحته ويعتمد على معناه ولفظه، وكان أكثره ظاهراً التوارد... وإن تجاوز ذلك قليلاً في الغموض لم يكن فيه غير اختلاف الألفاظ، ثم تسبب المحدثون إلى إخفائه بالنقل والقلب وتغيير المنهاج والترتيب، وتكلفوا جبر ما فيه من النقيصة بالزيادة والتأكيد والتعريض في حال والتصريح في حال آخر والاحتجاج والتعليل، فصار أحدهم إذا أخذ معنى أضاف إليه من هذه الأمور ما لا يقتصر معه عن اختراعه وإبداعه مثله"[1].

---

١) "الوساطة" ١٩٢.

وظاهر كلام الجرجاني أن الاستمداد الشعري أحد الروافد التي لا غنى للشعراء عنها قديماً وحديثاً، وقد مرَّ كغيره من ضروب البيان بمراحل بدأ تواردا ثم تطور إلى أن أصبح من أبواب الإبداع التي يستدل بها على صنعه اللاحق في توظيف معاني المتقدم للإبانة عما في خاطره وهاجسه من أفكار ومقاصد ويحور ذلك البيان بما يلائم أغراضه وأحوال نفسه، فيكسوا العبارة التي أخذها خصوصيات وهيآت تخرج معها مخرج الجديد المخترع.

وهو بهذا يلفت إلى عدم تغييب هذا الرافد البياني في دراسة الشعر فهو أحد معايير بناء المعاني ونقد الكلام وتمييز مواضع الإحسان فيه، فالناقد يبحث فيما أضاف اللاحق على بيان المتقدم وكيف تسبب في نقله وتحويره بما يلائم مقاصده وهذا ما أفاده قوله "فصار أحدهم إذا أخذ معنى أضاف إليه من هذه الأمور ما لا يقصر معه عن اختراعه وإبداع مثله".

وقد وضح عبد القاهر فقه باب السرقات في كتب القدماء، وأنهم حينما جعلوا البيت نظيراً للبيت الآخر كان ذلك فهماً للاستمداد والتشابه حيث قال: (لذلك جعلوا البيت نظيراً للبيت ومناسباً له ولو كان المعنى متحداً لأصبح محالاً أن يناسب الشيء نفسه، وأن يكون نظيراً لنفسه) [1]. فالأخذ لا يعني التماثل التام وإنما يجب أحداث فروق وخلق أشكال وخصوصيات في المعاني تتغير بها صفة المعاني المأخوذة.

إذا فهم السرقات كان فهماً للبلاغة التوليدية التي تفجر التراكيب وتشقق الدلالات، فتولد من النص السابق نصوصاً إبداعية أخرى، لأن تحريك الإبداع واستثارة دلالته ومد ظلاله إلى معاني أخرى لا يكون بمجرد

١) عبد القاهر " الدلائل " ٥٠٩.

النقل وإنما يحتاج فيه إلى الزيادة وهذه تحتاج إلى ((المحاولة والمزاولة والمقايسة والمباحثة والاستنباط والاستثارة))[1].



أيضاً وظفها شراح الدواوين والمختارات الشعرية في تأويل النصوص واستنطاق مكنوناتها والكشف عن معاني الشاعر من خلال نظم مشابه ومناظر له في المعنى عند الشاعر نفسه أو عند شعراء آخرين. فالشراح لما أشكل عليهم قول المتنبي:

هذا الذي خلت القرون وذكره وحديثه في كتبها مشروح

فسكت ابن جني عن تفسيره إعراضاً عن المعنى حتى لا يخوض في معتقد أو لأنه أشكل عليه. وشرحه ابن دوست بخلاف المراد فقال: "إن الله بشر بالممدوح في كتب الماضين". وعاد به الواحدي إلى نظائره في الديوان فكشف مستوره وجلى حقيقته بعدما اشتبهت ورد شرح ابن دوست وعده كذباً على الشاعر "لأن الله تعالى لا يبشر بغير نبي، أو لم يسمع إلى قول أبي الطيب:

إلى سيد لو بشر الله أمة بغير نبي بشرتنا به الرسلُ"[2].

فاستقام بالمعنى على لاحب من بيان أبي الطيب وانتظم مع مقاصده، فمعاني أبي الطيب ترفض ذلك التفسير وتنقضه، فالممدوح لم تبشر به الكتب السماوية وإنما هلكت الأمم ومحت الأيام أسماء كرام الناس إلا هذا الممدوح لا زال مخلداً مسطراً تطنب كتب الكرم ذكره وتشرح فضائله .

١) عبد القاهر " أسرار البلاغة " ٣٤٠.
٢) العكبري "التبيان في شرح الديوان" ١٠٥.

ولما زعم الحاتمي أن المعنى في قول أبي الطيب :

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا لمن بات في نعمائه يتقلب

منقول من قول أرسطو ( أقبح الظلم حسدك لعبدك الذي تتنعم عليه ) فصرف الضمير في " نعمائه" الى " من بات حاسدا " ورد ذلك ابن فورجه فقال : ( انما



الهاء عائدة للممدوح ومعنى البيت : أن انعامه فائض على كل أحد ، فأظلم الناس من يحسد من خيره ، اذ كان خيره مبذولا لكل أحد ، فلم يبق للحسد وجه وانما هو مثل قوله :( كسائله من يسأل الغيث قطرة ) وخارج من مخرجه ).١

والمعنى الذي قال به الحاتمي كشفت عنه عبارة أرسطو أي تقبيح صورة المحسن الحاسد لعبده في العطاء الذي أمتد منه اليه،وهذا يشبه التنفير من الأذى والمن في الصدقات .أما ابن فورجه فأستل معنى أخر من قرينة اللفظ وهو عود الهاء في

" نعمائه " على الممدوح،ومن قرينة خارجية وهي تتبع مسالك الشاعر في الإبانة عن أغراضه واستدل بتشابه البناء في موضع أخر من الديوان على تحقيق عود الضمير فكان هذا الاقتران منفذا لرد ما قاله الحاتمي وأبرز به مخبأت معاني المتنبي ونكت دفين بيانه ، وولائد فكره التي تفرد بها وسبق اليها،فمعنى البيت أن الممدوح فاض عطاءه على الناس وخيره معمم فلم يبق وجه للحسد، فأظلم الناس من يحسد من نال من خيره ،لأن خيره مبذول للناس كلهم . فهو يصور فئة أخرى يرفلون في احسان المنعم ثم يحسدون نواله للغير ، وجعل حسدهم ظلما متفردا لا يأتيه الناس إلا فئة من الظلام لشدة بشاعته . ثم أضاف ذلك التشابه بين البيتين معنى أخر أكد دلالة "وأظلم أهل الظلم " وهو ان الحاسد لمن بات

في نعماء الممدوح متعنت في ظلمه، ومتكلف له لأنه مستغنى يتقلب أيضا في نعمه ، وهذا المعنى بعثه



١) المعري :"تفسيرأبيات المعاني"ص ٥٠-٥٢

قوله في قصيدة أخرى( كسائله من يسأل الغيث قطرة) أي هو متكلف لما استغنى عنه وطالب لأمر مبذول مشاع.١

واختلاف التوجيه بين الحاتمي وابن فورجه اختلاف تنوع وليس ثمة تدافع ،لأن عبارة المتنبي ذات عطاء دلالي واسع فمن حذق الشاعر وقوة اقتداره على الصنعة استطاع أن يشبع لغته بمعاني متكاثرة بإجاعة اللفظ. فكل هذه المعاني المتنوعة حركها وبعثها تردد الضمير وصحة عوده على الممدوح والمنعم عليه الحاسد وترتب على كل وجه .

ولم يقتصر إجراؤها على ما أشكل وإنما اطرد في كثير مما لم يشكل أيضاً كما في شرح العكبري لقول المتنبي:

لا خلق أسمح منك إلا عارف  بك، راء نفسك لم يَقُلْ لك هاتها .

فسره بـ"أنه لا أحد أسمح منك إلا رجلاً رآك فعرفك، فلم يسألك بأن تهب له نفسك، ومثله:

ولو لم يكن في كفه غير نفسه  لجاد بها فليتق الله سائله"[1] .

١) العكبري:"التبيان في شرح الديوان "٢/٣١٦-٣١٧
٢)السابق: ١/٢٣٨

فالمعنى ظاهر ولكنه استحضر المعنى المشابه لتقرير مراد الشاعر، ويمكن الاستفادة من تلك النصوص في دراسة تطور المعنى عند الشاعر وكيف أعاد تشكيلها وغيّر هيأتها، ولو تأملنا البيت الثاني لو جد نافيه صنعه وحذقاً في إيراد المعنى

السابق، فقوله: "لا خلق أسمح منك" نفى أن يكون هناك من يعادله في السماحة والجود إلا رجلاً عرف شأن هذه النفس وعلم أنها لا تتكرر فلم يطلبها مع أنها من النفوس التي يرغب في مثلها الكرام ويتنافسون في الحصول عليها وهو لا يرد سائلاً ولن يظن بها على أحد. وهو معنى جيد لكن عبارة "أسمح منك" كدرت صفو المديح فصاغها في الموضع الآخر بقوله "فليتق الله سائله" وهذه الجملة لخصت معنى البيت السابق وطوت خلفها لهفة العارف بفضائل الممدوح ورغبته في الحصول على نفسه، وأن تقوى السائل لله وإشفاقه هي المانع له من الطلب. فانتظم فحوى عجز البيت مع منطوق صدره وأكد معناه وأنه لا يرده شيء عن البذل والعطاء.

ولم يحصر الشراح أثرها على تفسير المعنى وإنما وظفت أيضا في دراسة معجم الشاعر وبيان المراد من لفظه من خلال سياقات استعماله ، فيحمل على الدلالات التي شاعت عند الشاعر ونمثل لذلك بمسلك المرزوقي في بيان المراد من كلمة

(آهل) في قول أبي تمام :

متى أنت عن ذهلية الحي ذاهل وقلبك منها مدة الدهر آهل

حيث صلحت لمعان متعددة كل منها ما يجوزه القرائن اللفظية أو نصوص أخرى خارجية يقول : ( وآهل يجوز أن يكون على طريق النسبة ، أراد: وصدرك منها ذو أهل ،أي هو أبدا معمور بحبها مأهول بذكرها...ويجوز

أن يكون أراد:وصدرك طول المده آلف لها ، ومن أجلها قال الخليل:يقال لكل شيء ألف شيئا هو آهل،أي صار أهليا وكذلك يقال لما ألف الناس من الدواب أهلي.ويجوز أن يكون أراد:وصدرك من أجلها يأهل حبها،أي يقويه ويشيعه،حتى كأنه جعله ذا أنصار وأهل،ويكون هذا من قوله:

وذا وجدت لها وساوس سلوة شفع الضمير لها الي فسلها

وقد استعمل أبو تمام "آهل" في هذا المعنى في قوله :" أجل أيها الربع الذي خف آهله" ). [1]

فالقضية إذن ليست تماس نص مع نص آخر بل الاستعانة بتلك النصوص في تحريك الإبداع السابق واستثارة معطياته فيصبح هذا النص البعيد في جغرافيته

عاملاً في الكشف عن صنعة المتكلم السابق فاللاحق وإن شكل هيئة جديدة للمعنى الذي استمدها من المتقدم إلا أنه لا ينقطع عنه تمام الانقطاع وإنما تظل هناك روابط خفية تشده إلى النبع الأول، وراجع المؤلفات في شرح الدواوين كالعكبري والتبريزي وغيرهم ستجد هذه الأداة مضطردة عند كل ناقد ولكن لم توضع في قاعدة تنص عليها وتقررها وتجعلها عنصراً من عناصر تحليل البيان وقرينة تدعم المعاني التي يستنبطها شارح الشعر.

وظائفها البيانية :

تبين من التعريف بالقرنية الخارجية أنها ضرب من الدلالة المنفصلة عن التركيب تتسع بها دلالة الخطاب ليضم نصوصاً ملائمة

١) المرزوقي:"شرح مشكل أبيات أبي تمام"٢١٧

ومشابهة ومناط العلاقة اعتبار المعنى جمعاً بين المتماثلات وتفريقاً بين المختلفات فيتولد من هذا الجمع بياناً تتقارب أطرافه وتتزايد دلالاته.



وعمل القرنية الخارجية مثل عمل الإشارة والإيماء أي هي مسلك من مسالك الوصول إلى المعاني المستكنة في أعماق النصوص، فيقوم النص الخارجي مقام القرنية الظاهرة المصرحة بإيحاءات النص الآخر، وإن كان "الذهن قد لا يشعر ارتباط هذا بهذا وتعلقه به" [1]، وليس كل نص صالح للعمل في النص الآخر وإنما هناك وشائج وخيوط دقيقة تربط النص بالنص وتصحح الامتزاج بينهما، وتنبعث منها معان زائدة على أصل المراد. فيعمل النص في سابقه بالتخصيص والتعميم، والتبين والتفسير، والإطلاق والتقييد، أو التأسيس والتوكيد لذلك كانت القرنية الخارجية ضابطة لحركة المعنى والمقاصد في التشريع ومبينة لمراتب المعاني ومنازلها من خلال موقع النص في النص .

وينبغي أن ننبه على أن هناك ضوابط للاقتران بين النصوص يتعدى العلم بها ظاهر اللسان إلى معرفة المقاصد الخاصة للمتكلم ثم (إلى أفهم لوازم المعنى ونظائره، ومراد المتكلم بكلامه ومعرفة حدود كلامه)[2].

فيتحدد بذلك مجال الاستمداد الدلالي من النص الخارجي وتضبط حركته داخل النصوص الأخرى. وقد ذكر حازم القرطاجي أن المعاني "يوضع بعضها بإزاء بعض لنسب تقضي ذكر المعنى مع ما يناسبه وإيقاعه إلى جانب ما يليق به"[3].

---

١) ابن القيم:"اعلام الموقعين"٢٦٧/١

٢) "السابق" ٢٧٢/١.

٣) "منهاج البلغاء" ١٦١.

ويمكن الاستعانة بكلام لابن القيم في تحديد مجال النسب يقول: (الاعتبار بالمعاني والمقاصد في الأقوال والأفعال وإذا اختلفت عباراتها أو مواضعها بالتقديم أو التأخير والمعنى واحد كان حكمها واحد أو لو اتفقت ألفاظها واختلفت معانيها كان حكمها مختلفاً)[1].

فالنسب لها مجالان: مجال في المعاني، ومجال في الألفاظ، والملاءمة في المعاني والمقاصد هي المجال الذي يصح معه إعمال النص في النص.

وللتأصل للقرنية الخارجية لا غنى للباحث عن مراجعة أصول الفقه وتحرير مقالة العلماء فيها فقد ضبطت كتبهم هذا النوع من القرائن وبينت طرق إجرائها. فالتعاضد بين النصوص قرآنا وسنة واقع بياني أقره الدرس الأصولي ووظفه وبنى عليه كثيراً من الأحكام، فالقرآن منزل من الله، والسنة وحي من الله لقوله تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ فهو من بيان التنزيل بالتنزيل و" بيان المنزلين بالأخر غير ممتنع"[2] بل تجاوز التناظر بينهما الإبانة بالتوضيح إلى الزيادة في أصول المعنى حيث جوز الشافعي الزيادة في حكم النص "على درجة يوجب زيادة في حكم النص الأخر ، لا على وجه يوجب ما هو خلاف النص الأخر ، لأن وجوب الزيادة إذا كان النص الأخر ساكتاً عنه يكون بياناً، والكلام إن كان ظاهراً فهو يحتمل زيادة بيان ولكنه لا يحتمل ما هو خلافه"[3]. ونص الشافعي يشير إلى أن هناك ضوابط للاقتران بين النصوص تضبط

---

١) "إعلام الموقعين"، ١٤٦/٣.
٢) الأمدي "الإحكام "٤٧١/٢.
٣) السرخسي "أصول الفقه "١٦١/٢.

الاستمداد من النص الخارج، لأنه ليس كل نص يمكن الاستمداد منه بل هناك نصوص تقضي في دلالتها على النص وتنقض مقاصده، أي أن هناك نقطة يقف عندها المستنبط وهي المرحلة التي يصبح فيها الجمع بين السياقات قاضياً على دلالة النص، لذلك يجب مراعاة مجالات الخطاب ونطاقه السياقي من مخاطب وحال وملابسات.

والعلاقة بين النصوص في التشريع الإسلامي تمتد عبر محورين هما قاعدة التأسيس للأحكام وهما القرآن والسنة وتتشكل العلائق التناظرية بين نصوصها عبر عدة طرق هي :

١- تفسير الكتاب بالكتاب .

٢- تفسير الكتاب بالسنة .

٣- تفسير السنة بالسنة .

٤- تفسير السنة بالكتاب .

وإعطاء الدلالة حقها من الضبط يكون وفق العلائق السابقة الضابطة لحركة المعنى، فلا يخل بشيء منها ، فينظر في موقع كل مستوى من الآخر وجريانه في محيطه، وما يحدثه من قنوات لغوية ينفذ منها النص الخارجي إلى داخل النص الآخر ويصبح جزءاً من مدلوله فـ( كل حديث في القرآن أصله قرب أو بعد، فهمه من فهمه، وعَمِهَ عنه مَن عَمِه) [١].

وكون السنة حاصلة في القرآن في الجملة دلالة على تلاحظ هيئات المعاني وأحوالها في التشريع فسريان دلالة السنة في القرآن من باب الإجمال حيث تجد القرآن جامعاً لمحتواها، ولا تنكشف تلك الدلالة إلا

---

١) الزركشي " البحر المحيط " ١٦٦/٤.

من خلال عطف الدلالة المفصلة في السنة على الدلالة الجامعة في القرآن ، فتتضح المقاصد ، وتظل التفاصيل تتحرك شيئاً فشيئاً حتى تكتمل دائرة المعنى .



فالسنة تلاحظ المقاصد الكلية في القرآن وتدور في جزئياته على اعتبارات من هذه المقاصد لا تنحرف عنها ، لذلك كان باب الاستنباط يتطلب مخاطباً له خصوصية في إدراك المقاصد والجمع بين أعناق النصوص ، وضمها في نقاط الالتقاء ثم تشعيث الدلالات الزائدة التي تثيرها النصوص في نطاق النص ، فتحدث أثراً في دلالته نحو التخصيص أو التقييد أو البيان أو التفصيل .

ونذكر مثالاً على أنواع الزيادات في المعاني هي الزيادة بالتخصيص، والتخصيص مؤثر عامل في أصول الدلالة بتغيير أوضاعها تجاه مقاصد محددة تزيد في الأصل معاني كثيرة فـ(الخصوصيات من حيث الخصوص معنى زائد على ذلك المعنى العام أو معاني كثيرة)[1].

فالقرآن قرر حكم الإرث باعتبار القرابة ، وفصل ذلك الاعتبار في دائرة المعنى العام ويوضحه قوله تعالى: ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيماً ﴾ النساء ١١-١٢.

فجاءت السنة بتثبيت المعنى العام وهو القرابة ثم خصصتها بأجناس وجهات كشفت بها عن زوايا أخرى ضبطت بها الحكم ، فالقرابة

١) الشاطبي" الموافقات "٦٦/٤.

لها أجناس وأحوال مختلفة ففرعت السنة دلالة الكتاب باعتبار هذه الأحوال والجهات واستثنت أحوالاً خلصت بها القرابة من معاني تغير دلالتها في مقاصد التشريع ، فقال ﷺ: (لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم) فخصصت الدلالة من زاوية اجتماع دين الوارث والموروث[١].

ثم قال ﷺ:( القاتل لا يرث) فخصصت زاوية أخرى لما بين القرابة والقاتل من التضاد، وكأن القتل يقضي على دلالة القربى ويقطع الوشائج الواصلة بينها وبين حكم الإرث.

ثم حددت السنة معنى آخر في سياق مختلف وهو أن يكون الوارث والموروث حرين مع الإسلام . لقوله ﷺ: (من باع عبداً وله مال ، فماله للبائع إلا أن يشترطه المبتاع).

وهذا يتوافق مع المقاصد الكلية في الشريعة علماً أن العبد لا يمللك وإن مللك العبد فإن ما يملكه لسيده. [٢] ولأنه متى أعطينا العبد لكونه أباً – مثلاً– كون بذلك ورثنا سيده الذي لا فريضة له لخروجه من علة الإرث وهي القرابة وبهذا نكون ورثنا غير من ورثة الله[٣].

ومن نص الشافعي تقرر ما كان يختلج في نفسي حول القرنية الناظمة لدلالة الخصوص في عموم الآيات السابقة، فهي قول تعالى: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾ فجاء التخصيص من زاوية النفع، فالقتل والكفر والعبودية لا تتحقق فيها دلالة النفع، وإن تحققت فيها القرابة التي هي أصل المعنى، فجاءت اعتبارات السنة من جهة النفع بعد

١) الشافعي " الرسالة " ١٦٤.
٢) السابق١٧٠ .
٣) "ينظر السابق " ١٧٠- ١٧١.

أن مهدت لها دلالة القرآن، فنظمت السنة هذا الخيط وضبطت حركة الدلالة وحددتها وفق المقاصد الكلية التشريع، ولله ما أعظم شأنه في البيان.



فالسنة وظفت كقرينة كاشفة عن أعماق دلالة القرآن وما تحتويه من معان متشابكة فجاذب البيان النبوي عناصر الدلالة المجملة في القرآن وقرر الأصل ثم امتد بالتفسير إلى محل الإجمال وكشفت عن ما استودعه البيان القرآني من معان وفوائد[١].

وينتاب القارئ تساؤلاً عن الثمرة المرجوة في إعمال القرينة الخارجية في مجال الإبداع الإنساني أو الدراسات الشعرية؟ وباب التناظر في حقيقته وسيلة من وسائل والاستنباط في الدراسات الأصولية مهمته تتميم الشريعة وتكميلها بتعاضد عناصره المؤتلفة قرأنا وسنة، فالتناظر بينهما أمر واجب لأنهما جميعاً بوحي الله. ويسعيان لغاية واحدة فما أجمل في القرآن فصلته السنة.

أما الدرس الأدبي فالأمر فيه مختلف لأن الإبداع نتاج ذاتي فردي تحكمه ظروف خاصة بالمبدع فينماز بها نتاجه عن نتاج غيره .

نقول: إن جعله أصلاً في فهم البيان سواء كان تشريعياً أم إنسانياً لا يعني إلغاء جميع الفروق بين البيانين وإنما بجب مراعاة فارق أن النصوص التشريعية يكون فيها النص مع غيره منتجاً للحكم "فيصير مجموعهما دليلاً على حكم"[٢].

١) ابن قدامه "روضة الناظر" ص٥٠.
٢) الرازي " المحصول " ١٩٧.

وهذا من خصائص الاستدلال بالخطاب التشريعي وتحريك دلالته بضم بعضه إلى بعض أما البيان الإنساني فضم النصوص بعضها إلى بعض يقتصر أثره على الإبانة دون أنتاج حكم، فاللاحق يلحظ معان مطوية في الإبداع السابق فيتصرف في هذه المعاني بوسائل وكيفيات فيعود نتاجاً مبتدعاً وقرن النصوص بعضها ببعض يكشف عن تلك الوسائل وعمل اللاحق في بيان سابقه وما الذي أضافه من خصوصيات وعناصر كانت وسماً يميز إبداعه، فالشاعر في تعامله مع البيان السابق ليس ناقلاً أو حاكياً وإنما شارح ومبين لخبئه ودال على وحيه بل وناقد لعيوبه منتج لها في صياغة أحسن تخلص المعنى المتقدم من القبح أو النقص.

فهذا النوع من أنواع القرائن يمكن أيضاً الاستفادة منه في دراسة تطور المعاني عند الشاعر وتطور صنعته في الإبانة عن معانيه وذلك بالنظر في مقاصده الكلية المتفقة في ديوانه ثم اعتبار نظائرها في قصائد أخرى مع ملاحظة مواقع المعاني الجزئية من الكليات ، وما أحدثه من زيادات على أصولها، وفي كل ذلك نراعي غايات كل قصيدة وملابساتها.

والزيادات التي في أصول المعاني لا ندعي حصرها ولكن نقف عند بعض صورها لبيان فاعلية ضم النصوص وحركة المعنى بين البيتين فتارة يعمل فيه عمل الكشف والتفسير كما في قول أي تمام:

أطاعها الحسن وأنحط الشباب على فؤادها وجرت في روحها النسب

قوله ((أطاعها الحسن)) من الأبيات التي يسأل الناس عنها كما يقول الأمدي والمعنى يسفر بالمراد في نظيره:

كما اشتهت خلقت حتى إذا اعتدلت تمت تماماً فلا طول ولا قصر [1].

فالمعنى بلوغها غاية الكمال حتى لو ترك لها الاختيار من الحسن لما اختارت غير ما هي عليه بل كأنها أمرت الحسن بما في نفسها فلبى مرادها وهذا غاية الكمال، فالبيت الثاني فيه زيادة باشتماله على البيان والكشف[2].



ويمتد التفسير والبيان إلى ما وراء الظاهر من ايحاءات نبهت عليها لغة المتقدم فاستثارها اللاحق وحرك دلالتها من التلميح إلى التصريح . مثل قول عدي بن زيد :

وصحيح أضحى يعود مريضاً وهو أدنى للموت ممن يعود

أخذه على بن الجهم:

وكم من عليل قد تخطاه الردى فنجا، ومات طبيبه والعود

فبيت عدى خبر يحمل تنبيهاً على معان خفية وهي السخرية من حوادث الدهر وتقلباته، وقد استثار علي هذا البيت وأبرز معنى السخرية المستكنة خلف لغة عدي، وعمل على إثرائها من خلال الصياغة فاستخدم كم " الخبرية "للفت الانتباه إلى أنها حقيقة مشاهدة وليست من صنع الخيال، ثم تأمل كيف بدأ المقطع الذي أنتهى عنده معنى عدى، فعدي حكى قصة الصحيح المغتر بصحته والذي ظن أنه ابعد عن الموت من المريض الذي يزوره. فالتقط ابن الجهم قصة العليل ثم تصور خواطره وهو ينتظر الردى ويتوقعه حيناً بعد حين، والطبيب حوله حفي به، والعود

١) الموازنه ٢/٤٠.

٢) ينظر: البابرتي "شرح التلخيص" ، ٦٩٢.

يتناوبون زيارته لتسليته وإدخال الأنس والأمل على نفسه، فبنى حكاية وقصة على الخبر الذي جاء في بيت عدى.

وأيضاً نجد الصنعة في قوله "قد تخطاه الردى" وما فيها من تشخيص للردى وانه بعد ما أوهنه حتى أيقن الهلاك تخطاه إلى من كان حوله مسروراً مغتراً بصحته، ومغتراً بغفلة الدهر عنه. ثم أبرز معنى السخرية الذي في بيت عدى بتصوير المفارقة الساخرة لتحول الحوادث وتقلب صروف الدهر ومخالفة ما كان متوقعاً، حيث قال "فنجا" وهذه مفاجأة ثم المعنى الضدي المخالف للتوقع "ومات طبيبه والعود".

وتارة يعمد المتكلم إلى تقوية المعنى الأول فتحصل له زيادة في المعنى بالمبالغة كما في تناول المتنبي لبيت جرير:

ما زال يحسب كل شيء بعدهم خيلاً تكر عليهم ورجالاً

فقد دل جرير على الاشياء الموجودة وإثارتها الفزع في نفس الخائق رهبة من خيلهم وبطشهم فقد تملأت نفسه بصورة جيشهم من شدة الفزع .

فأخذ ابو الطيب المعنى فقال :

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً

أخذ صورة الهيئة في دلالة جرير وما تحدثه في قلب الخائق حتى تصبح أوهاماً تلازم صاحبها، فيستشعر صورهم في المعدوم فضلاً عن الموجود، فيرى ما يخافه متمثلاً أمامه في كل موضع مبالغة واستدلالاً بالأعلى عل الأدنى ولست أوافق علي الجرجاني في نقده للبيت بأنه " بالغ

حتى أحال وأفسد المعنى"[1] فقد استطاع المتنبي أن يوسع الدلالة ويصور عبث الأشياء في نفس الخائف حتى تراه وجلاً رأى شيئاً أو لم يره.



وقد يزيد في المعاني بالتوكيد ويتأتي لذلك غالباً من خلال التصرف في لغة المتقدم فيكيفها بكيفيات تنمي بيانها وتزيد في دلالتها . مثل قول زهير :

وليس لمن لم يركب الهول بغية ... وليس لمن قد حطه الله حامل

فساق زهير كلامه ليخبر عن حقيقة الأمل وأنه مقرون بتجشم الأهوال وأتى أبو تمام إلى المعنى من باب الصياغة فبنى خبر زهير بناء انشائياً ليحدث به تأكيداً فقال:

ذريني وأهوال الزمان أعانها ... فأهواله العظمى تليها رغائبه

فقوله " ذريني " طلب الابتعاد عن الصاحبة يحمل دلالة الانقطاع ويوحي بقوة النفس وشدة العزيمة وترك الملذات واللهو .

ثم قال: وأهوال الزمان أعانها "ولم يقل" ذريني أعاني أهوال الزمان " لأن الأول يصور لك أهوال الزمان ويستحضرها في نفسك ويشخصها في صنعته ومقامه وكأنك تشهد معرك رجل يحارب أهوال الزمان.

أما "ذريني أعاني أهوال الزمان" فالمعنى فيه يختلف وينطفي شعاع القوة الذي أفاده التقديم والتأخير، وتصبح دلالة معاناة أهوال الزمان تشوبها دلالة الحزن. ثم رتب السبب في تجشمه وانقطاعه لركوب الهول على الظفر بالرغائب حتى تصبح الرغائب في الزمان يظفر بها المتجشم لمعاركته، فزاد المعنى تأكيداً باختيار هيئة التراكيب وتغيير النظم السابق إلى ما يناسب مقاصده.

---

١) " الوساطة " ٢٦٣.

فضميمة النص إلى النص يتأتى بها الناقد للكشف عن صنعة اللاحق وتعامله مع الإبداع السابق والزيادات التي أضافها، وتنبه أيضاً على المقاصد الخفيه التي بعثها من النظم الآخر واستخرجها من ثنايا لغته وجلاها، وتنتج عنه أيضاً دلالات زائدة على أصل المعنى فـ" في الاجتماع من المعاني ما ليس في الانفراد"(١).

واستحضار القرينة الخارجية في بيان النص تأتي أحياناً عبر قنوات وعناصر لغوية تسمح بجريان أحدهما في محيط الآخر، وتصبح الدوال في لغة النص تحيل إلى مساحات دلالية متعددة للمتكلم نفسه أو لنصوص خارجة مناظره له ، فتحث اللغة الفكر نحو استحضار نصوص تتولد من لغة النص، ويقول حازم في شريطة هذا التداخل " أن يكون المعنى مرتباً على معنى آخر لا يمكن فهمه إلا به، وأن يحسن الدلالة على ذلك من العبارة"(٢).

فتداخل المعاني وترتيب بعضها على بعض يحتاج إلى حذق وبراعة في نسق العبارة مع القدرة على تشكيل المعاني الخارجية في عناصرها حتى تهيئ الذهن لمجاذبة النظائر والأشباه.

ويمكن توضيح ذلك بوصف عمل العناصر اللغوية ونكتفي بذكر بعضها وهي كالتالي:

١- لام الذكر:

موقع هذه اللام يعمل على فتح قنوات لنصوص أخرى متعددة تصب في مصب واحد مع اتساع امتدادها فتنتظم وتأتلف بلام الذكر يقول:

---

١) الشاطبي " المرافقات " ٤٧٣/٣.

٢) "منهاج البلغاء ".

الموزعي في صورة الكلام " أن يكون الكلام في سورة مقروناً بلام الذكر فيقتص العالم ذلك من كلام آخر ما في تلك السورة وإما في سورة أخرى"[1].



نحو قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ غافر آية: ٥١.

فقوله (الأشهاد) ولم يجر لهم وصف سابق يرجع إليه التعريف أحدث إجمالاً استثار الفكر فحركة تجاه سياقات الشهادة في تراكيب خارجية وبالتقصي نجدها من أربع آيات وهي قوله تعالى: ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ ق ٢١، وهم الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾

وهم الأنبياء عليهم السلام .

وقوله: ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾

وهم هنا الأمة المؤمنة ومحمد ﷺ وقوله ﴿ يوم تشهدُ عليهم ألسنتُهُم وأيديهم وأرجُلُهُم بما كانُوا يعملُون ﴾ وهي شهادة الأعضاء[2].

فلام الذكر حفزت الذهن على إجراء الترابط الخارجي بين الدلالة ونظائرها في نصوص أخرى .

---

١) "تييسر البيان" ١/٢٢٤ .

٢) السابق نفسه.

وأعمال هذا في الشعر يحرك دلالته ويمدها إلى آفاق أرحب تتسع عندها المعاني ، فحينما يقول أبو الطيب :

وكنت إذا يممت أرضاً بعيدة سريت فكنت السر والليل كاتمه



فقوله :"السر" عرف وليس ثمة معهود في التراكيب السابقة وحينما نقتص أثر الكلام في معاني أبي الطيب في السر نجدها تكشف عن السر المبهم الذي يريد تصويره ، فهو ليس سراً معهوداً وإنما سر متناهي في الغموض كالليل ، وهو السر الميت الذي لا ينشره ولا يبعثه باعث وهذا دل عليه قول في مكان آخر :

وسركم بالحشا ميت إذا انشر السر لم ينشر

وهذا البيت يفسر اختيار الليل للكتمان لأنه يمثل فناء النور في الضياء ، كما يمثل الموت فناء الحياة.

وورد هذا المسلك في قول أبي تمام :

لا عدمتم غريب مجد ربقتم في عراه نوافر الأضداد

فقوله :" نوافر الأضداد " أكد بها غرابة مجد الممدوح وكيف صير المجد وهو ذو صفة واضحة معلومة وأحاله غريبا اجتمعت فيه المتنافرات وأحكمت عراها فيه بينما تنافرت عند غيره، فجملة " نوافر الأضداد " وان فسرت معنى غرابة المجد الا أنها جاءت مبهمة حيث عرف الأضداد ب"ال" دون أن يكون هناك معهود سابق يفسرها ، فحفزت الذهن للتنقيب عن صورة الأضداد وتتبع المعنى في سياقات سابقة في القصيدة واستحضارها للكشف عن المعنى ، فأحالت الى قوله في بيت سابق وهو قوله: (فقروكم من بغضه ووداد ) أي اجتمعت قلوب الأنام في النظر الى مجدة والالتفاف

حول سيرته ،وتنافرت فمنهم الحاسد لشرفه وارتفاع منزلته ، ومنهم من قيده جود الممدوح وفضله .١



- الإشارة :

وهي التضمين الناقص(٢)، مثل قول الشاعر :

كنا جميعين في بؤس نكابده والقلب والطرف منا في أذى وقذى

والآن أقبلت الدنيا عليك بما تهوى فلا تنسى إن الكرام إذا

فقوله: (إن الكرام إذا) جملة مصغرة أحالت على أبيات مشهورة وهي(٣) :

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن

فالشاعر عمد إلى زيادة حذق في صناعة التضمين بإحداث مزاوجة بين

---

١)المرزوقي :"شرح مشكل أبيات أبي تمام " ١٧٨

٢)الصفدي:"الغيث المسجم "٢٢٢/١

٣) السابق نفسه

التصريح والتلميح، فصرح بمطلع البيت وهو "إن الكرام إذا" ثم شعث معاني البيت

تدريجياً في أبياته حتى اكتملت دائرة المعنى فقول الشاعر: "إذا ما أيسروا" هو قوله

"الآن أقبلت الدنيا عليك بما تهوى "وقول الشاعر "ذكروا" هو قوله " كنا جميعين في بؤس نكابده ...".

واختيار الشاعر للوقوف على مقطع يجب فيه التعليق، وهو الشرط إلحاح منه على ضرورة إجراء دلالة النص الآخر لإتمام المعاني، لذلك جعل الصفدي لفن الإشارة مزية على التضمين الكامل "لأنه أطرب للفهم وأعذب للسمع .. لأنه يرفع عن المخاطب مؤونة الإصغاء وقرع السمع بما هو محفوظ مقرر في الأذهان"(١).



فهنا إحساس بالمستوى البياني الذي يحدثه الإيحاء إلى نص آخر من تحريك الذهن لاستدعائه وإدخاله في سياقه لتكتمل صورة المعنى.

٣- التنبيهات الضمنية :

التي تنسج في بلاغتها نصوصاً متداخلة يحدثها النظم فتنتظم بها نصوص متعددة تنشعب في أودية تبتعد في مسافاتها وتقترب في دلالتها وقد أشار السرخسي إلى أن المهتدي إلى هذه البلاغة المتداخلة كـ" من رمى سهماً إلى صيد فربما يصيب الصيدين لزيادة حذقه في ذلك العمل"(٢).

وهذا النص يدل على أن التداخل يكون باعتبارات ترجع إلى الفصاحة والبلاغة أي " خصائص ووجوه تكون معاني الكلام عليها وعن زيادات تحدث في أصول المعاني"(٣).

كما في قوله تعالى : ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن ﴾

١) السابق. ٢٢٣/١.
٢) الأصول ٢٢٦/١.
٣) عبد القاهر الجرجاني: "دلائل الإعجاز" ٢٢٦.

فاختيار على المولود له دون"الوالد" تنبيه على نسبة الابن لأبيه ، وتولد منها نص آخر في سياق خارجي مستقل وهو قول عليه الصلاة والسلام : (أنت ومالك لأبيك) فكشفت وجوه النسبة وهي النفس والأملاك التي كانت مجملة في دلالة الآية .

وعليه أيضاً قول الأخطل :

تنق بلا شيء شيوخ محـــارب وما خلتها كانت تريش ولا تبري

ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت فدل عليها صوتها حية البحـــر

فهذه الأبيات تحمل تنبيهات إلى حكاية المثل المشهور" وجنت على أهلها براقش " ولكن الشاعر حرك أصل دلالة المثل وغيرها تجاه مراده وهو هجاء شيوخ محارب ووصفهم بالذلة مع إظهارهم للتعاظم بالأقوال دون أفعال تصدقها ، فأسس بالبيت الأول أجواء بيانية نفضت دلالة المثل (وجنت على أهلها براقش) واكتفي بما يحمله المثل من إشارات .

فبني كلامه على التحقير لشأنهم فقال : "تنق" ليدل بهذا الموقع على ادعائهم لكل أمر حتى كونهم شيوخاً ويقرر ما بعدها من الكلام وهو : وما خلتها كانت تريش ولا تبري "فناسب الصفات السابقة تشبيهم بالضفادع دون الكلبة لما تدل عليه من الضعف وحقارة الشأن ثم ضمن كلامه بإيحاءات أصل المثل ودلالته وهو تحول نباح الكلبة من مصدر إرهاب للعدو إلى هلاك محيق بأهلها ، ثم احترز عن جانب التحفز في الكلبة إلى جانب التخفي والهمس الذي يناسب الضعف ، فخرج من طريقة بناء المثل "جنت على أهلها " إلى بناء يتوافق وغرضه فقال : "فدل عليها صوتها " .

لأن ذلك مصدر شقاء وهلاك محيق بأهلها فنزل الصوت منزلة الكلبة التي دلت على أهلها ، فأوحى بذلك إلى أنهم ممن لا يعبأ بهم وأنهم لا شهرة لهم ، ولم يقل دل صوتها لكي لا ينسب لهم ارتفاع فانتظم مع قوله ( تنق) وزاد في نسبة التحقيق ووضاعة الشأن التي بنى عليها غرضه .

ونقف عند هذا العرض المقتضب لعمل القرينة الخارجية ومدى فاعليتها في تحليل البيان والوقوف على صنعة المتكلم وجهده في بناء نظمه وكيفية جمع النصوص وتلاقيها تلاقياً مثمراً، وقررنا أن القدرة على إثارة التوافق بين النصوص المتناظرة والمتشابهة وتحريكها لتستظل نظائرها في سياقات أخرى يمثل وحدة متكاملة للبيان مع احتفاظ كل نص بخصوصياته الفارقة، فحكم البيتين ليس كحكم الاسمين وضعا لمسمى واحد ولكن حكمهما حكم "الشيئين يجمعهما جنس واحد ثم يفترقان بخواص ومزايا وصفات))[1].

وهذا النوع من القرائن يحتاج إلى اجرانه في النصوص وممارسته حتى تتأصل وتستقيم لأنها بذرة بلاغية طرحت ثمارها ونتاجها في حقل أصول الفقه وهما علمان كما أشرنا سابقاً بينهما نسب وصلة، فينبغي للناقد الاستفادة من معطيات البلاغة في الحقول الأخرى كي تكتمل طرائف التحليل وسبله وأدواته.

وحتى لا يقف النقد عاجزاً عن فهم مقاصد المتكلم وحائراً في مسالكه في الإبانة.

---

١) عبد القاهر الجرجاني "دلائل الإعجاز" ٥٠٧.

فليس هناك معنى في "بطن الشاعر" فقد استطاع علماء الأصول وشراح الحديث استخراج مقاصد الشارع ودلالات الخطاب المنطوقة والمسكوت عنها وفحوى الخطاب فأحاطت بالإبانة من جميع نواحيها على ترامي أطراف البلاغة المعجزة وامتداد معانيها فكيف بالبيان البشري وهو محدود الدلالة.

## ( فهرس المصادر والمراجع )

(١) إمام الحرمين – أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله .
" البرهان في أصول الفقه " ، تحقيق : صلاح عويضه دار الكتب العلمية–بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ .
(٢) الآمدي ، أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد .
" الإحكام في أصول الأحكام " ، دار الكتب العلمية – بيروت ، د . ط .
(٣) الآمدي ، أبو القاسم الحسن بن بشر .
" الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري " ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، د . ت
(٤) البابرتي ، أكمل الدين محمد بن محمد .
" شرح التلخيص " ، تحقيق : محمد مصطفى صوفيه ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣م ،
المنشأة العامة للنشر والتوزيع – الجمهورية الليبية .
(٥) التلمساني ، أبو عبد الله محمد بن أحمد المالكي ، " مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول " ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٣هـ .
(٦) التوحيدي ، أبو حيان .
" المقابسات " تحقيق : محمد حسين ، دار الآداب ، بيروت / بغداد ، الطبعة الثانية ١٩٨٩م
(٧) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر .
" البيان والتبيين ، تحقيق : عبد السلام هارون ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٥هـ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .

(٨) الجرجاني ، علي بن عبد العزيز .
" الوساطة بين المتنبي وخصومه " ، تحقيق : محمد أبو الفضل ، وعلي البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٣٨٦هـ
(٩) الجرجاني ، عبد القاهر بن عبد الرحمن .
" أسرار البلاغة " ، تحقيق : محمود شاكر ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ ، مطبعة المدني ، جدة .
" دلائل الإعجاز " ، تحقيق : محمود شاكر .
(١٠) ابن جني ، أبو الفتح عثمان .
" الخصائص " تحقيق : محمد علي النجار ، الطبعة الثانية ، دار الهدى للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان .
(١١) ابن الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن عبد الله .
" نواسخ القرآن " تحقيق : محمد الملباري ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ ، الجامعة الإسلامية – المدينة المنورة – .
(١٢) حموده ، طاهر .
" المعنى في دراسة الأصوليين ، الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع ، الإسكندرية ، ١٤٠٣هـ .
(١٣) الدسوقي .
" حاشية الدسوقي على شرح السعد " ، ضمن الشروح على التلخيص ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
(١٤) الرازي ، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين .
" المحصول في علم الأصول " ، الطبعة الأولى ، تحقيق : طه العلواني ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، لجنة البحوث والتأليف والنشر .
(١٥) ابن رشيق ، أبو علي الحسن .

" العمـدة " ، تحقيـق : محمـد محيـي الـدين عبـد الحميـد ، دار الجيـل ، بيروت .

(١٦) الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبد الله .

" البحـر المحـيط فـي أصـول الفقـه " ، الطبعـة الثانيـة ، ١٤١٣هـ ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، الكويت .

" البرهان في علوم القرآن " الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(١٧) السبكي ، بهاء الدين .

" عروس الأفراح " ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د . ط .

(١٨) السرخسي ، أبو بكر محمد بن أحمد .

" الأصول " ، حققه : أبو الوفا الأفغاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ .

(١٩) السكاكي ، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر .

" مفتـاح العلـوم " ، الطبعـة الثانيـة ، ١٤٠٧هـ ، تحقيـق : نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٢٠) الشافعي ، محمد بن إدريس .

" الرسالة " تحقيق : أحمد شاكر ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٩هـ . دار التراث .

(٢١) الشاطبي ، إبراهيم بن موسى اللخمي .

" الموافقات " ، أبو عبيده مشهور آل سلمان . الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ، دار ابن عفان ، الخبر – المملكة العربية السعودية .

(٢٢) عبد الجبار ، أبو الحسن عبد الجبار الأسد أبادي .

" متشابه القرآن العظيم " ، عدنان زرزور ، ط. دمشق .

" المغني في أبواب التوحيد " ، قدم له أمين الخولي ، مطبعة الكتب ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٠هـ .

(٢٣) عبد الرحمن ، طه .

"تجديد المنهج وتقويم التراث " ، الطبعة الثانية ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء .

(٢٤) العكبري ، أبو البقاء .

" التبيان في شرح الديوان " ، دار الكتب العلمية.بيروت . الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ

(٢٥) القرطاجني ، حازم .

" منهاج البلغاء وسراج الأدباء " ، تحقيق : محمد الحبيب ابن خوجه ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثالثة . ، ١٩٨٦م .

(٢٦) القيسي ، أبو محمد مكي بن أبي طالب .

" الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه "،تحقيق :أحمد فرحات ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض .الطبعة الأولى١٣٩٦هـ

(٢٧) ابن القيم ، محمد بن أبي بكر .

" أعلام الموقعين " ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧هـ .

" بدائع الفوائد " ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ

(٢٨) المرزوقي ، أبو علي أحمد بن محمد .

" شرح ديوان الحماسة " نشره أحمد أمين ، وعبد السلام هارون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٧هـ .

(٢٩) المعري ، أبو المرشد سليمان بن علي .

" أبيات المعاني " ، تحقيق : مجاهد الصواف ، ومحسن عجيل ، دار المأمون للتراث ، بيروت ، ١٣٩٩هـ .

(٣٠) المغربي ، أبو يعقوب .
" مواهب الفتاح في شرح المفتاح " ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
(٣١) المقدسي ، موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامه .
" روضة الناظر وجنة المناظر " ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، د . ت .
(٣٢) الموزعي ، محمد بن علي .
" تيسير البيان لأحكام القرآن " ، تحقيق : أحمد المقري ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ ، مطبعة رابطة العالم الإسلامي ، مكة المكرمة .